المحاضرة الرابعة:

أسباب الاضطرابات السيكوسوماتية

يتفق أغلب الباحثون أن الإضطرابات السيكوسوماتية تحدث نتيجة ضغط انفعالي شديد أو مستمر وذلك الضغط يتوقف على الأسلوب الذي يستجيب به الفرد لبعض مواقف الحياة بغض النظر عما إذا كان إدراكه لتلك المواقف موضوعيا أم لا ، فإذا لم يتمكن من التعبير عن الإنفعال الذي يتطلبه الموقف فإن التأثيرات الداخلية تعمل على تعطيل الوظائف السوية لبعض الأعضاء ، ويعتمد تأثير ذلك بدرجة كبيرة على الضعف التكويني المحتمل لتلك الأعضاء والتاريخ المرضي للفرد والقيمة الرمزية التي يعطيها المريض للعضو المصاب وكذا العوامل الوراثية واستعداد الفرد للإصابة بهذا الاضطراب. وفيما يلي نحاول توضيح أهم العوامل المساهمة في حدوث المرض السيكوسوماتي:

1- العوامل المتعلقة بالوراثة :

يقصد بها وجود استعداد تكويني نتيجة الخبرات الأولى للفرد (الفسيولوجية أو النفسية) يقوم على الوراثة كظروف الولادة أو عمر الأم وما يحدث أثناء الحمل غالباً ما يلازم الطفل بعد الولادة ، و يشير **سونتاج ولستر Sontage & Listere** أن حياة الجنين داخل الرحم تتأثر بالحياة الانفعالية للأم وبالحالة الجسمية والبيئية الداخلية والخارجية ، فأي اضطراب للأم ينعكس على الطفل وما يحدث أثناء الحمل غالبا ما يلزم الطفل بعد الولادة وتعتبر هذه العوامل بمثابة المهيئ للإصابة العضوية ولكن لا تعمل لوحدها في إنتاج الاضطرابات (أبو النيل، 1994: 210). وتؤكد **دنبار** أن الاضطرابات المتكررة لدى الأم تنقص من الطاقة التي تساعد على بناء جسم الجنين وقدرات الطفل فيما بعد، مما يضعف من توافقه مع البيئة (الزراد 2000 :75) . والمقصود هنا بالوراثة ذلك الاستعداد المؤثر على نمو الجنين والظروف المحيطة بالحمل والولادة مع استبعاد الاضطرابات التي ترجع إلى الوراثة مباشرة كالهيموفيليا، الأنيميا ، الخلل الكروموزومي... إن الوراثة لا تعني بالضرورة تشابه الأباء مع الأبناء في الصفات ، فهناك اختلافات بين الأفراد ترجع الى اختلافات بيئية وراثية - أي صبغي له بيئته الكيميائية- كما أن التفاعل بين الجينات يتأثر بالبيئة الداخلية (داخل الخلايا ، وفي بيئة الجين) كما يتأثر أيضا بعوامل البيئة الخارجية خاصة العوامل الفيزيقية كالحرارة والبرودة .

2- العوامل المتعلقة بالبيئة :

تلعب العوامل الاجتماعية والاقتصادية والمهنية دورًا في نشأة هذه الاضطرابات مما جعل هناك اختلافا في نشأتها من مجتمع لآخر ومن طبقة لأخرى داخل المجتمع الواحد (شقير ، 2002 : 33). ويرى **نوريس وجينيس Norris & Ginnis (1970)** أن تأثيرات البيئة الاجتماعية تلعب دورًا مهمًا في ترسيب الأعراض السيكوسوماتية كما أن الطبقات الاجتماعية الفقيرة التي ينتشر فيها ضعف الوعي الصحي وعدم الاهتمام بالعلاج أو الوقاية وكثرة العوامل السلبية والاتجاهات المتصارعة التي ينتجها المحيط قد تمهد لظهور الاضطرابات السيكوسوماتية.

وفي هذا الإطار يؤكد **هالداي** Halliday (1979) أن المجتمع المريض يظهر بوضوح أعراض تفككه على شكل أمراض واضطرابات لدى أفراده ، كما أن التغير الاجتماعي السريع يزيد من هذه الأمراض. كما أكد بعض الباحثين على أهمية أحداث الحياة اليومية للأفراد وعلاقتها بالمرض السيكوسوماتي فقد أشار كل من **ماكين وآرثر** MC Kean & Arthur (1966)**وكاسل وكوب** Kasl & Cobb (1970) إلى أن الحوادث اليومية مثل البطالة والتشرد والخسارة والفراق....الخ تؤدي كلها إلى الإجهاد النفسي وكذلك فإن المعايشة الطويلة لمثل هذه المواقف تترك أثرها السيئ في جسم الإنسان. فهناك علاقة نوعية بين الضغوط والاضطراب الجسمي (العضو المهيأ) على النحو الآتي (شقير، 2002 : 34) :

- تغيرات الشخصية في مراحل العمر المتقدمة والتي تؤثر في عمل الأعضاء.
- ضعف عضو من الأعضاء كما في حالة الإصابة أو العدوى.
- وجود العنصر في حالة نشاط لحظة الإجهاد النفسي أو الثورة الانفعالية.
- المعنى الرمزي للعضو في نظام شخصية الفرد.
- توقف النمو النفسي وبالتالي جمود العضو في تطور وظائفه.

توصلت أغلب تلك الدراسات إلى وجود ارتباط بين العوامل الاجتماعية ونشأة المرض السيكوسوماتي لكنها بالمقابل لم تنجح حتى الآن في توضيح الميكانزمات التي تجعل العوامل الاجتماعية مؤدية للاضطراب العضوي (الزراد ، 2000 : 76) ، وعموما يمكن القول أن التنشئة الاجتماعية والبيئة المحيطة تلعب دورًا أساسيًا كمسببات للاضطراب السيكوسوماتي . ويعتبر عدة باحثين أن علاقة الوالدين بالطفل هي الأكثر أهمية في نشأة المرض السيكوسوماتي ففي دراسة أجراها بورسيل وميتز على مرضى الربو وجد بأن هذا الأخير يرتبط بصرامة الأم مما سبب صراعات خطيرة بين الأم والطفل -خاصة في فترة التدريب على ضبط الإخراج- وحدوث تعارض بين رغباتهما (عبد المعطي، 2003: 72). كما أشار **ارجلس** Argles (1983) إلى أن التهديد بالانفصال داخل العائلة يؤدي إلى ظهور بعض أنواع السلوك غير السوي لدى الأبناء كالقلق والاضطرابات السيكوسوماتية. لذا ينظر إلى تلك الأعراض على أنها استجابات للتهديد بالانفصال داخل عائلة المريض.

كما أن كل ما يتعرض له الفرد في حياته كالصراع الانفعالي بين الاعتمادية والاستقلالية وقمع الغضب وعدم القدرة على التعبير عن المشاعر والرغبات والحقد الشديد، والعدوان المكبوت وعدم القدرة على تحقيق الذات والضغط الانفعالي المستمر والإحباطات المتراكمة التي تنتج ضغوط نفسية شديدة تؤدي إلى اليأس والانهيار. والانفعالات طويلة المدى ترجع إلى عوامل داخلية أكثر منها إلى عوامل موضوعية وهناك حالات يعاني فيها الفرد من خوف غامض دون أن يعرف له سببا ويرجع ذلك إلى حالة الحصر التي يعاني منها ، وتنتج مثل هذه الانفعالات من عمليات ديناميكية داخل الفرد دون أن يكون مدركا لها. فالانفعالات الدائمة المستمرة تؤدي إلى ظهور الأعراض السيكوسوماتية عبر ما تحدثه من تأثيرات داخلية تمس الجهاز الإدراكي كفقدان الحب أو تجربة الانفصال .

لذا يرى **جالاتين Gallatin** أن الضغط الناتج عن أسباب نفسية له دور كبير في حدوث الأمراض السيكوسوماتية التي تظهر في صورة آلام واضطرابات جسمية فقد يسبب الضغط الانفعالي المستمر والصراع النفسي خللا في التوازن الهرموني أو تلفاً في أجزاء معينة من الجسم (مصطفى ، 2003 : 20). إن الضغط هنا يتوقف على الأسلوب الذي يستجيب به الفرد لبعض مواقف الحياة بغض النظر عما إذا كان إدراكه لهذه المواقف موضوعيا أم لا لذلك طورت المدرسة الفرنسية **Marty (1976)** مفهوم " التفكير العملي" للتعبير على فقر الخيال والقدرة على الترميز للأشخاص الذين يقال عنهم سيكوسوماتين. كما يؤكد هذا الاتجاه على أن امتلاك الفرد تنظيما نفسيا وجدانيا صلبا يعد ضرورة للدفاعات العقلية في مواجهة انهيار التنظيم السيكوسوماتي (زيور ، 1998 : 232).

من خلال ما سبق يمكن القول أن كلا من العوامل الوراثية والبيئية تشترك في تهيئة عضو ما للإصابة بالمرض السيكوسوماتي ، كما ترجع الأعراض المصاحبة له إلى فرط في الوظائف الفزيولوجية للانفعال وانعدام التوازن الهرموني لدى المصابين. وهذه العوامل تعتبر سببا مهيئا للاضطرابات العضوية لكنها لا تعمل لوحدها على تفجيره ، بل تصاحبها عوامل بيئية مختلفة يشار إليها في العادة بالضواغط **(Hinkle, 1974 , Mason, 1975)** أو بأحداث الحياة الضاغطة **(Dohrenwend & Dohrenwend, 1974)** أو التغيرات الكبرى في الحياة **(Rahe, 1975)** ، وبين هذا وذاك يبقى لادراك الفرد للحادث أو الموقف دورا هاما في تحديد طبيعة استجاباته .